القيصر اسكندر الثالث

(تابع ما قبله)

ختمنا الكلام في الجزء الماضي بما ذكرهُ الثقات من اسباب مرض القيصر ووفاتهِ لكن جريدة السكولا الايطاليَّة زعمت انهُ مات مسمومًا وان المرض الذي اصابهُ انما هو نتيجة السم الذي دسهُ لهُ النهلست في الطعام وقت حادثة بوركي . والظاهر ان مصدر هذا الزعم نهلستي وقد هزأ طبيب القيصر الاخير الدكتور ليدن بهذه الاشاعة وقال ان القيصر كان عالمًا منذ زمان انهُ لا يعيش وكان يتحمل ما ينتابهُ من الاوجاع وهو صابر . وقد بقي يهتم بشؤون المملكة الى الساعة الاخيرة ووقَّع على بعض الاوامر قبل وفاتهِ بساعات قليلة . وقد ذُكر ذلك بالاسهاب في المقطم الصادر في ١٥ نوفمبر . "ونشرت جريدة الفلوى الفرنسويَّة انهُ سأل ولي عهدهِ قبل وفاتهِ بأربعة ايام عمَّا اذا كان قد اعدَّ المنشور الذي سينشرهُ على الامة الروسيَّة عند ارتقائهِ سرير الملك فتردد ولي العهد عن الجواب مدة ثم اجاب نعم اعددتهُ فاضطرَّهُ ان يطلعهُ عليهِ وزاد عليهِ عبارتين احداها تتعلق بحفظ جانب السلم الذي لم يتكدَّر صفاؤهُ طول مدة ملكهِ . وخاطب ابنهُ عند ذلك قائلاً هذا هو عنوان مجدي فالآن قد اصبح منشورك تامًّا وافيًا وقد احسنتَ لانك لم تتعرَّض في هذا المنشور لذكر شيء ممَّا تستطيع ان تمنحهُ لامتك اذ ينبغي ان تعطى الحريَّة للامَّة شيئًا فشيئًا على قدر احتياجها اليها" . وقد ذكر ذلك في المقطم الصادر في ١٧ نوفمبر

وكان لنعيهِ وقع أليم في جميع الممالك والبلدان فانهالت رسائل التعزية على زوجتهِ وابنهِ القيصر نقولا الثاني من الملوك والعظماء في كل الاقطار والامصار وعُرضت جثتهُ باحتفال عظيم في كنيسة ليفاديا في بلاد القرم حيث اسلم النفاسهُ ثم نقلت الى مدينة موسكو ومنها الى بطرسبرج مسافة الف وخمس مئة ميل وأُقيمت الصلوات ووزعت الاطعمة في جميع الاماكن التي وقفت فيها . وبلغت مدينة بطرسبرج في الثاني عشر من نوفمبر وكانت شوارعها مكسوة بالسواد فعُرضت في كنيسة قلعتها ستة ايام لكي يشاهدها جمهور المعزين على اختلاف طبقاتهم ويودّعوها الوداع الاخير . وكانت جدران الكنيسة واعمدتها مغطاة بالاكاليل بل كانت الاكاليل مرصوفة في ارضها كالروابي

واكثرها من الفضة الخالصة وبعضها من الذهب الابريز. وفي صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر نوفمبر غصت الكنيسة بعظماء الامة الروسيَّة ووكلاء الدول الاجنبيَّة وفي الساعة الحادية عشرة دخل القيصر نقولا وامهُ وسائر الاسرة القيصريَّة والملوك والامراء الذين وفدوا لهذا الاحتفال وبينهم ملك الدنمرك وملك اليونان وملك السرب وغرندوق هس ودوق كوبرج والبرنس اوف ويلس وابنهُ دوق يورك وغيرهم من الامراء. ولما تم رؤساء الكهنة صلاة الجنازة تقدَّم القيصر واخوهُ الاصغر واعمامهُ وحملوا النعش الى القبر وهو في الكنيسة نفسها. واقيمت صلاة الجنازة عن نفس القيصر في جميع العواصم وحضرها الملوك والعظماء وكلهم كاسفُ البال

"ولا غروَ فهو القيصر العظيم الذي تولى الاريكة الروسيَّة مدة ثلاث عشرة سنة او تزيد فحبب رعيتهُ اليهِ بما مهَّد لها من اسباب الامن والرفاهة وبسطة العيش واستمال سائر الدول الاوربيَّة بما اظهرهُ من ميلهِ الى السلم ورغبتهِ الشديدة في اعلاء معالمهِ وتشييد دعائمهِ. وهذا ما دعا اللورد روزبري وزير انكلترا ان يقارن بينهُ وبين نبوليون الاول ويوليوس قيصر ويُلقبهُ ببطل السلم المجرَّب وعذيقهِ المرجَّب"

وقد اثبتنا في المقطم مقالةً مسهبة في اوصافهِ ومناقبهِ يوم وردنعيهُ الى القطر المصري قلنا فيها ما يأتي "عُرف القيصر اسكندر الثالث بخصائص ومزايا هي زينة الملوك وحليتهم الَّتي ينبغي ان يتحلوا بها. فهو مشهور بالتقوى وقوة الايمان بحيث لا تحدث حادثة من حوادث هذا الكون الاَّ ويرى فيها سرًّا من اسرار العناية الالهيَّة ويقال ان معيشتهُ في بيتهِ تشبه معيشة رجل من رجال الدين. وقد عُرف ايضاً بالدأب والاجتهاد فكان ينهض من فراشهِ في الساعة السابعة صباحاً على كون معظم الاشراف في روسيا ينهضون غالباً قبيل الظهر وبعضهم ينام الى ما بعد الظهر. ومتى نهض من نومهِ خرج الى حديقة قصرهِ فيطوف بها هنيهةً ثم يعود فيتناول شيئاً من الطعام ويشرع في اعمالهِ. واول ما يبدأُ بهِ ترويض بدنهِ بالاعمال الَّتي تستدعي قوة العضل كقطع الاشجار وجرف الثلج والصيد والقنص وغير ذلك. فهو يشبه المستر غلادستون من هذا القبيل. وقد بلغ من شدة كلفهِ بهذه الامور انهُ امر ان يتركوا لهُ بعض الاروقة في قصر غتشينا ليجرف الثلوج منها بيدهِ في اوقات الشتاء وكان اولادهُ يعاونونهُ على ذلك وهم فرحون مبتهجون فاذا فرغ من ترويض بدنهِ جلس ازاء مكتبهِ واخذ في القراءة والتوقيع على الاوراق وكان يقرأُ كل شيء مدققاً فيهِ شأن اليقظ الساهر على مصالح رعيتهِ ومتى فرغ

من القراءة عاقٍ ما يخطر لهُ من الآراء والافكار على الهوامش غير متحاشٍ اظهار مواضع الخطإ والانتقاد متى رأى حاجة الى ذلك . ولا يترك اشغالهُ الاَّ عند الساعة الاولى بعد الظهر فيذهب لتناول الغداء ثم يخرج للنزهة في حديقة القصر مع البعض من اهل بيتهِ او كبار قوادهِ ويعود فيقرأ جريدتين من الجرائد الروسيَّة تطبعان على ورق خاص ليطالعهما . ثم يتلو على مسامعهِ خلاصة الجرائد الروسيَّة وغيرها حتى اذا فرغ من ذلك جلس يسمع حديث نديمهِ وما يقصُّهُ عليهِ من نوادر الفكاهات وغرائب الاخبار والاحوال . ثم يتفرغ لمواجهة وزرائهِ وقد عين لكلٍّ منهم يومًا خاصًّا يواجههُ فيهِ ويسمع ما يبديهِ الى مسامعهِ من متفرقات المسائل والشؤون ويعود فيوقع على الاوراق ويمضي في الساعة الثامنة مساءً ثم يتناول الشاي ويذهب الى حيث جلالة القيصرة . والغالب انهُ يذهب اليها بملابس الصيد مدة اقامتهِ في قصر غتشينا وعذرهُ في ذلك انهُ مقيم في الخلاء . وقد كان يحب المعيشة في الخلاء كثيرًا وكان يقول حبذا لو أُتيح لي ان ادفن في الخلاء وان اعيش براحة وسلام في مزارعي وحقولي

" وكان من المشهورين بقوَّة العضل وشدة البأس . يحكى عنهُ انهُ كان يلوي قضيبًا من الحديد على ركبتهِ ويدفع الباب بكتفهِ فيخلعهُ ويأخذ الريال بين اصابعهِ فيلويهِ ويجعل منهُ قمعًا يضع فيهِ زهرة ثم يقدمهُ الى من حولهُ من نساء قصرهِ ضاحكًا متهللاً كانهُ فعل امرًا من ايسر الامور واخفها كلفة وعناء . وكان يأخذ اوراق اللعب رزمة واحدة ويثنيها بيدهِ ويمزقها اربًا . هذا ما كان من امر قوَّتهِ البدنيَّة مما اشتهر امرهُ وسار في الخافقين ذكرهُ . على انهُ مما اشتهر بهِ من قوَّة الباس وشدة المراس كان يعدُّ حمل القيصريَّة وقرًا ثقيلاً عليهِ وكان يفضل الاهتمام بشؤون اهل بيتهِ وذويهِ على عزة الملك وأبهتهِ . ويروى عنهُ انهُ لما توفي ابوهُ وبلغهُ ان الملك صار اليهِ اطرق في الارض ثم قال ان اختياري من بين جميع الروسيين لتولي اريكة القيصريَّة الروسيَّة لا يخلو من القساوة . ولو لم يكن يعتقد ان قبضهُ على زمام الملك انما هو ضربة لازب عليهِ بل هو واجب يطالبهُ بهِ ضميرهُ لترك التاج وشأنهُ ولم يحفل بما هنالك من الجاه ورفعة الشأن

" وكان شديد التمسك بقولهِ اذا وعد انجز . واشتهر بالاستقامة والصدق . يروى ان بعض رجالهِ عرض عليهِ يومًا اسم رجل قال انهُ اصلح للوزارة من سواهُ وبالغ في وصف ذكائهِ ومهارتهِ فتبسم القيصر وقال ان قليلاً من الاستقامة خيرٌ لنا واصون لمصالحنا من كل هذا الذكاء والمهارة فنحن في حاجة الى المستقيمين الصادقين لا الى الاذكياء البارعين

" ومما يروى عنهُ ايضاً انهُ كان يحب زوجتهُ واولادهُ حبًّا شديدًا وكان يُسرُّ بملاعبة اولادهِ الى درجة تفوق الوصف حتى كان يقضي ساعاتٍ مع ابنتهِ الغرندوقة كسينيا في احد قصورهِ وهما يلعبان ويمرحان والسرور والنشاط ملأ جوارحهما . ومما يدل على حبهِ لرعيتهِ ولا سيما الفقراء منهم انهُ كان جالساً ذات يوم مع البعض من رجالهِ فعرضوا عليهِ ان يلقبوهُ بالقيصر العادل فقال بل انني قيصر الفلاحين وسأبقى كذلك الى ما شاء الله وهذا احسن لقب تلقبونني بهِ . وانهُ ما من احد ادرك كنه الاشتراكيَّة وحقيقة معناها فيما اعلم الاَّ اثنان اولهما الملك هنري الرابع الذي كان يهتم بشؤون الفلاحين من رعاياهُ . والثاني انا فيما اظن . لان جلّ منيتي وغاية قصدي ان لا اترك الفلاحين من رعيتي يموتون جوعاً " انتهى عن المقطم الصادر في ٢ نوفمبر سنة ١٨٩٤

ومع هذهِ المناقب الرائعة بقيت جرائد اوربا تنكر فضلهُ وتصدِّق بما يروى عن بلاد الروس من المنكرات الى ان زارهُ احد كتاب الانكليز في قصر غتشينا وحادثهُ مدةً طويلة ووقف على آرائهِ ومقاصدهِ واذاعها في الخافقين فازاح ستار الاوهام عن البصائر واعترف كبار الكتاب كما اعترف كبار الملوك والوزراء بانهُ قيصر السلم الذي بيدهِ ميزان السياسة الاوربيَّة . وان اقصى مناهُ على ما قالهُ احد وزرائهِ لا ان يكون ملكاً عظيماً بل ان يكون ملكاً على امَّة عظيمة وان يسلم ملكهُ من التلطخ باوضار الحروب . ولقد نال ما تمنَّى فكان مليونان من شاكي السلاح طوع امرهِ مدة اربع عشرة سنة ولم يطلق واحد منهم رصاصة قصد العداء في كل بلاد الروس الوسيعة لا جبناً ولا احجاماً بل تجنباً لما لا فائدة منهُ فانهُ كان يقول اذا اراد الله ان ننقوض اركان السلم وتدور رحى الحرب فاني اخوض عجاجها غير هيَّاب " وما انا بالنابي الحفيظة في الوغى "

" ولكنني ماضي العزيمة مُقْدِمٌ على غمرات الحادثِ المتفاقمِ "

واهتمَّ في اخريات ايامهِ بما سعى اليهِ بعض الفضلاء حديثاً وهو تقليل الجيوش المنظمة حتى تقلَّ نفقاتها عن كاهل الامم ولا يبقى السلم شديد الوطأة على مريديهِ كما هو الآن ولكن نشبت الحرب بين الصين واليابان في غضون ذلك فرأى ان الزمان لم يحن لتحقيق هذه الاماني

وخير ما نختم بهِ هذه السطور قول اللورد روزبري وزير انكلترا الاول فيهِ قُبيل وفاتهِ وهو " ان جميع الامم رأت فيهِ ملكاً شعار ملكهِ وحقيقة خُلقهِ احترام الحق

والسلم . نعم انهُ لا يُعَدُّ من جملة الفاتحين الذين ربما علَّق التاريخ عليهم شأنًا اكثر مما يستحقون ولكن اذا كان للسلم ابطال لهم من السمعة والشهرة ما يعادل سمعة ابطال الحرب وشهرتهم فقيصر روسيا المجد الباذخ في التاريخ من حيث كونهُ بطل السلم ما يماثل مجد يوليوس قيصر ونبوليون بونابرت الفاتحَين"

عمر الارض

ذكرنا في الصفحة ٨٠٠ من الجلد السادس عشر من المقتطف "ان اللورد كلفن العالم الشهير اثبت ان ازدياد حرارة الارض بالاقتراب نحو مركزها وإشعاع الحرارة منها يدلّان دلالة قاطعة على ان لقِدَمها حدًّا محدودًا ووجد بالحساب انها لم تجمد منذ اقل من عشرين مليون سنة ولا منذ اكثر من اربع مئة مليون سنة". وقد ورد هذا القول هناك في خطبة السر ارثشبلد غيكي الجيولوجي الشهير لمّا رأس المجمع البريطاني سنة ١٨٩٢ . الّا ان الخطيب استقلّ هذه السنين وقدَّر عمر طبقات الارض بثلاثة وسبعين مليون سنة الى سبعة وسبعين مليون سنة ورجح العدد الثاني كما يظهر بالمراجعة بناءً على ان المرتفع من وجه الارض ينخفض في بعض الاماكن جزءًا من ٧٣٠ جزءًا من القدم في السنة بفعل المياه ولا ينخفض في غيرها الّا جزءًا من ٦٨٠٠ جزء من القدم في السنة . واكثر المرتفع من وجه الارض ينخفض بين هذين الحدَّين فعلى الاوَّل ينخفض قدماً كل ٧٣٠ سنة وعلى الثاني لا ينخفض قدماً الّا كل ٦٨٠٠ سنة . وقد عُلِم ان طبقات الارض لا يقلُّ سُمكها عن مئة الف قدم فاذا كانت قد رسبت باسرع التقديرين المتقدمين فقد اقتضى رسوبها ثلاثة وسبعين مليون سنة واذا كانت قد رسبت بابطإِهما فقد اقتضت ٦٧٠ مليون سنة

اما تقدير اللورد كلفن فاعتُبر قضيَّة مسلَّمة عند اكثر العلماء وعند الذين ينقلون عنهم ولا سيما اذا ارادوا مقارعة علماء البيولوجيا الذين لا تكفيهم ملايين السنين لتحوُّل انواع الحيوان والنبات. ولا نعلم ان احدًا ناقضهُ مناقضةً صريحة الّا في اواخر العام الماضي وذلك ان الاستاذ بري الرياضي وجد خطأً جوهريًّا في حساب اللورد كلفن ولكنهُ احجم عن مفاتحتهِ في ذلك هيبةً ووقارًا واخيرًا انقاد الى لجاجة اصدقائهِ وكتب الى الاستاذ تايت رفيق اللورد كلفن ورصيفهِ يخبرهُ بما اكتشفهُ من الخطإِ . وسبب هذا الخطإِ ان اللورد كلفن يحسب ان قوة ايصال مواد الارض للحرارة واشعاعها لها هي على